ان عدد اليهود في فلسطين بلغ ٢٢ ألفاً[٧].

وبعد عامين، قدرت مصادر غربية سكان فلسطين بـ ٣٠٠ الف، وذكرت ان عدد اليهود بينهم بلغ ٣٥ الفاً. وفي العام ١٨٩٥، أعطي تقدير آخر جاء فيه ان عدد اليهود بلغ ٦٠ الفاً من بين عدد السكان كلهم البالغ ٤٥٧٥٩٢[٨].

ومهما يكن من أمر، وفيما يتصل ببحثنا، فان الوجود اليهودي في فلسطين، الذي سبق الوجود الصهيوني، لم يكن يثير من الاعتراض بين السكان العرب اكثر مما يثيره أي وجود أجنبي آخر. ولا يمكن الوقوع على شيء ذي بال يدل على ان السكان العرب ربطوا بين وجود يهودي كهذا ومخاطر تتهدد وجودهم في وطنهم. لكن رد الفعل راح يختلف، تدريجياً، بعد ان راحت اصداء ضئيلة ومتباعدة عن المطامع الصهيونية تصل الى آذان بعض المعنيين من العرب الذين يقرأون بلغات اجنبية او من الذين شهدوا قدوم مهاجرين صهيونيين أوائل وادركوا شيئاً من المغزى الكامن وراء محاولات الصهيونيين الاولى لشراء الاراضي وتوطين هؤلاء فيها. من ذلك، مثلاً، ان قارئاً عربياً بعث رسالة إلى احدى الصحف في العام ١٨٦٨، فقامت بنشرها، وفيها يظهر تخوفه من قيام اليهود بشراء الارض، فيقول ان افراد من سماها الجمعية اليهودية، وهو يقصد، دون شك، الاليانس اليهودي ـ الفرنسي، يشترون «حقولاً ومزارع في الارض المقدسة لتعليم اولاد اليهود الزراعة والحراثة»، ويحذّر من ان اليهود «لا يلبثون ان يجلونا عن هذه الارض كما اجليناهم عن جزيرة العرب»[٩]. ومن ذلك، ايضاً، ان رؤوف باشا، الذي كان في العام ١٨٧٨ حاكماً لمتصرفية القدس عندما انشأ صهيونيون مستوطنة بيتح تكفا، اعترض على انشاء المستوطنة محذراً من «ان احلام العودة الى فلسطين باعداد كبيرة انتشرت بين اليهود»[١٠]. وفي العام ١٨٨١، وصلت الى فلسطين الدفعة الاولى من المهاجرين اليهود الروس الذين جمعوا بجهود منظمة احبّاء صهيون[١١]. واسس هؤلاء مستوطنة ريشون لتسيون كما اعادوا تأسيس بيتح تكفا التي سبق ان هجرها مستوطنوها الاوائل[١٢]. وما ان انتهى العام ١٨٨٤ حتى كانت تسع مستوطنات صهيونية صغيرة قد انشئت[١٣]. وهذا كله ساعد، اكثر ما ساعد، على فتح عيون السلطات، كما سنرى.

اما في العام ١٨٩١، حين وصلت الى البلاد دفعة كبيرة نسبياً من المهاجرين اليهود، فان الاحساس بالخطر شمل فئات من السكان فدفعها الى التحرك، وهكذا وقّع ٥٠٠ من مواطني مدينة القدس، حيث كانت تقيم اكبر نسبة من يهود فلسطين، عريضة موجهة الى السلطات مطالبين بمنع الهجرة اليهودية وحرمان اليهود من التملك. وعلى طريقة عرائض تلك الفترة في المبالغة، وليس لأن الاحساس بالخطر كان مطابقاً لما تعبر عنه الكلمات، جاء في عريضة اهالي القدس: «ان اليهود قد سلبوا الاراضي من المسلمين وبدأوا تدريجياً بالسيطرة على كل التجارة المحلية واحضار السلاح الى فلسطين»[١٤]. ويبدو ان احتجاج السكان كان له تأثيره، حيث يمكن ان نلمس آثاره في مجالين:

الاول في تدعيم آراء كانت قلة قليلة من الصهيونيين تجهر بها، وهي آراء القلة التي دعت الى الاهتمام بمشاعر السكان العرب ومصالحهم مقابل استهانة الاغلبية الصهيونية بها. ففي ذلك العام، اي ١٨٩١، كتب آحاد هاعام ( اسمه الاصلي آشر تسفي غينزبرغ )، وهو احد اباء الفكر الصهيوني: «نحن في خارج فلسطين قد الفنا الاعتقاد بان العرب جميعاً هم وحوش كاسرة من الصحراء، شعب شبيه بالمغفلين الذين لا يفهمون ما يدور حولهم، ولكن